الأغاني

واصلاح صناعتها

لعبد الرحمن فهمي بك

الغناء من الشؤون الكمالية سواء أكان في عصرنا أم في عصور تاريخه جميعاً . الا انه أصبح في أيامنا متصلاً اتصالاً تاماً بأسماع الناس وأفئدتهم جميعاً بواسطة المذياع وهو الآن اداة من أدوات المنازل والأندية وكل محل عام أو خاص . وأصبح ما يحمله الى الناس من غناء وألحان أكبر وأضخم مما يحمله من صنوف المذاعات الاخرى من علم وتربية وفن ودين وأخلاق وأدب

فاذا أصلح هذا الفن الجميل واستقام أثره في الناس أمكن أن نصلح به شيئاً كثيراً . ولقد جربت بنفسي — ولا يحدثك مثل خبير — صورة صالحة من صور الغناء والشعر والاناشيد والمواليا المملوءة بالغذاء الروحي — في النهضة الوطنية . فلقد كان لها شأن كبير في استقامة السبيل وصرف الشبان عن اللهو واللعب الى أداء واجبهم خير أداء من العمل المنتج واحياء الضمير العام والهام القلوب سر النهضة ونجواها . واني أنبه الى انني لا انسى ذلك الغزل الرقيق المعاني الذي كان يتخلص منه الشاعر او المنشد الى ما يريد من معاني الوطنية وآيات الجلال جرياً على سنة الشعراء في استهلالهم بالغزل الرقيق الى ما يقصدون

قد يقال مالنا ولمثل هذه المناسبة وليس لدينا مثلها الآن لتكون الاغاني لها كما كانت نعم المعين . وهذا الاعتراض كان من الاسباب التي أملت عليّ جوابي في هذه الكلمة المتواضعة

سيداتي سادتي : أحدثكم الآن عن اصلاح الاغاني العامة وهي غير الاغاني الخاصة التي تكون للافراد في خلواتهم وطربهم ولا تتعداهم الى الاطلاق والعموم . فهذه لا شأن لي بها لأنها لأصحابها وحسب . انما الشأن والقول في الدواعي والآثار العامة للاغاني والتطريب والموسيقى التي يشترك في سماعها الناس جميعاً . وهذه هي التي يجب ان يسمع فيها رأي طلاب الاصلاح ونقد الناقدين لانها قد خرجت بمقتضى منطق هذا الاطلاق من هوى أصحابها الى رأي الخاصة ليحكموا في شأنها بما يحكمون

---

(١) ألقى حضرة الكاتب المحترم عبد الرحمن فهمي بك هذه المحاضرة النفيسة في المذياع بدعوة من وزارة الشؤون الاجتماعية

أيبحث قراءة القرآن بالقراءات والالحان والصوت الحسن بما لا يتعدى الوقار الواجب والأدب المتبع ء قبل ذلك لان طبيعة الغناء والموسيقى طبيعة ماجنة لعوب لا تتعلق الا بالهزل من القول والعبث من المعاني أم أنها صناعة أجيز أن تتعلق بأشرف كلام عرفه البشر

أباح صاحب الشريعة الاسلامية صلى الله عليه وسلم لمؤذنه بلال الحبشي أن يؤذن في الناس بالصوت الحسن واللحن الحسن فهل ذلك لان الأذان كلام سقيم ومعنى سقيم أم أنه ذلك الاعلام للناس عن ميقات فروض الله فيجب له الحرمة والتوقير ولم ير الرسول أن ذلك التطريب يخرج بالأذان عن حرمته وتوقيره

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي موسى الأشعري لما أعجبه صوته (لقد أعطيت مزماراً من مزامير آل داود) . فهل كان ذلك امتداحاً من الرسول للموسيقى والصوت الحسن أم سخرية ؟ وداود هو النبي الذي كان يخرج الى صحراء بيت المقدس كل أسبوع ليقرأ الزبور على الناس بهذه الأنغام الرخيمة الساحرة وكان هو يتأثر بها الى حد الغيبوبة

عدَّ الفلاسفة الموسيقى والغناء والشعر شطراً قويًّا من الفلسفة الأدبية وها هم جميعاً قد ألفوا فيها وجودوا من بطلميوس الى افلاطون الى ارسطو الى الشيخ الرئيس ابن سينا الى أبي نصر الفارابي الى غيرهم من سابقيهم ولاحقيهم . فهل وقع تأليفهم وتجويدهم على شيء عبث واداة للهزل والخلاعة والتراخي أم لرياضة نفسية تربي الخلق والذوق وملكة الجمال وتدفع الى القوة والفضائل جميعاً

وهل كان الميراث الضخم الذي ورثناه عن هذه الانسانية المهذبة الكاملة — ميراث الموسيقى والاغاني — هزلاً الى حد أن يجعله المحترفون حبساً على هذه الأغاني الحالية من حب خيالي وغرام شهوي وخداع وسرقة أعراض وألفاظ سوقية ومعان مريضة ومعاقرة ومساكرة ومهاه ؟ وهل ورثنا هذا النعيم الروحي لنجعله كملابس الصالحات تلبسها اللعوب ثم لا يغني عن حقيقتها ذلك التزييف شيئاً ؟

سايرت الموسيقى كما أسلفت القرآن والأذان ومزامير داود وقدسها الفلاسفة جميعها — كما أسلفت — غرضاً من أغراضهم النبيلة وأحسنوا العقيدة فيها فجعلوها طبًّا لبعض الامراض كالحزن والجبن والحدة والشذوذ الخلقي والكآبة بل وصديقاً قويًّا لبعض دعائم الحياة الكبرى كالحرب والسياسة . وكانت تستعمل في المارستان النوري الكبير في دمشق الشام معواناً على شفاء الامراض وهو ما تشير اليه بعض الاتجاهات في الطب الحديث

حكى أبو نصر الفارابي في كتابه (أدب السماع) ما معناه أن أحد ملوك اليونان قد رأى أن ناحية من نواحي بلاده دخل على نفوس أهلها الكسل والجبن فبعث اليهم بعريف

من الموسيقيين أسمعوهم ألحاناً معينة فأيقظوا بها ما كان قد غفل من طباعهم ونام من اخلاقهم وقال افلاطون (من حزن فليسمع الموسيقى) وقال صاحب العقد الفريد (قال الاطباء أن الصوت الحسن يسري في الجسم ويجري في العروق فيصفو له الدم ويرتاح له القلب وتنمو له النفس وتهتز له الجوارح . . . .)

وقد زاد ارسطو على ذلك بما تعلم منهُ أن صناعة الالحان كانت سبباً في صناعة الشعر فقد جاء في كتابهِ عن الشعر الذي لخصه وترجمهُ الفيلسوف ابن رشد قوله (وأما العلة الثانية المولدة للشعر فالتذاذ النفس بالوزن والالحان . . . الى ان قال فالتذاذ النفس بالطبع بالمحاكاة والالحان والاوزان هي السبب في وجود الصناعات الشعرية وبخاصة عند الفطر الفائقة . . .)

***

سيداتي سادتي : لم يجد نساء الاسلام شيئاً يكرمنّ به النبي صلى الله عليه وسلم عند لقائه غير الغناء والشعر فقد استقبلنه بالنشيد المعروف

طلع البدر علينا في ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وكنَّ يحرضنَ الشجعان على منازلة الاقران . فمن ذلك انشاد عفيرة بنت عفان لقومها :

وان أنتمُ لم تغضبوا بعد هذه فكونوا نساء لا تعاب من الكحل
ودونكم طيب العروس وانما خلقتم لاثواب العروس والغسل
فبعداً وسحقاً للذي ليس نافعاً ويختال يمشي بيننا مشية الفحل

وهناك أنشودة جميلة تحثُّ على محبة الاولاد والغناء في تربيتهم قال الشاعر :

لولا بنيّات كزغب القطا رددنَ من بعض الى بعض
لكان لي مضطرب واسع في الارض ذات الطول والعرض
وانما اولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الارض
لو هبّت الريح على بعضهم لامتنعت عيني من الغمض

وكذلك كشف لنا عن بعض نواحي تربية المرأة العربية لطفلها وما تسمعه إياهُ من ألفاظ جيدة في طفولته ليعتادها حساً ومعنىً . قالت فاطمة بنت أسد وهي ترقص طفلها وتنشده :

أنت تكون ماجد نبيل اذا تهبُّ شمألٌ بليل

وكذلك السياسة الوطنية قال شوقي :

قل للبنين مقال صدق واقتصد ذرع الشباب يضيق بالنصاح
أنتم بنو اليوم العصيب نشأتم في قصف أنواء وعصف رياح
ورأيتم الوطن المؤلف صخرة في الحادثات وسيلها الجتاح
وشهدتم صدع الصفوف وما جنى من أمر مفتات ونهي وقاح
صوت الشعوب من الزئير مجمعاً فاذا تفرق كان بعض نباح

وفي الغزل الرشيق ذي المعاني السامية يقول البهاء زهير :

جزى الله عني الحب خيراً فانه به ازداد خيري في الانام وعليائي
وصيّر لي ذكراً جميلاً لانني أحسن أفعالي لتحسن اسمائي

وقوله : وما العشق في الانسان الا فضيلة تنمّتُ من أخلاقه وتلطف

وقوله : أعشق الحسن والملاحة والظر ف وأهوى مكارم الاخلاق

وبعد فما اخترتهُ من هذه الاغاني والاشعار هو كتمثيل على ان الشعر والغناء يتسعان لأغراض الحياة الشريفة جميعاً ومنها الحب الشريف كما سمعتم وكل هذه الأغراض ليست معروفة في اغانينا الحالية جملة وتفصيلاً

وعندي أن التحرج والتردد في سماع الاغاني عن احترفوها في صدر الاسلام وأخذوا ألحانها عن الروم والفرس والرومان وحصروها في دائرة الغزل والمجون ، أقول ان هذا التحرج من العظماء كان لما قدروه من أن الغناء على صورته هذه اذا شاع وذاع قد يصبح دافعاً الى اللهو والعبث واذا شاع العبث انصرف الناس اليه . وقد فرّق عمر بن الخطاب في عبارته المعروفة بين الغناء الذي يصح سماعه وهو الذي يعفو الله عنه ، أي أنه يكون في غرض نبيل ، وبين الغناء الذي لا يصح سماعه وهو الذي لا يعفو الله عنه . أي أنهُ يكون في غرض عابث سخيف . وهذه قولة معاوية وقد سمع غناء (لا بأس من سماع الغناء مع حكمة الشعر) ومعروف ان حكمة الشعر لا تكون الا في خلق كريم أو حب نبيل أو حكمة باقية

***

قلنا ان من دواعي الغناء والموسيقى تسلية النفس وطرب الفؤاد وأعتقد انه سائغ ولا تقول ان جميع الاغاني الغزلية يلتمس فيها ذلك نعني بسهولة . فالغزل أرق أنواع الشعر وأقربها الى النفس وأدناها من الفؤاد . وكل انسان يقدر الغزل في نفسه تقديراً خاصاً ويفهم مراميه

بوجدانه ووحي نفسه . وهذا صوفي زاهد فان في عبادة الله يغزل الغزل الرقيق في المعنى الرشيق هو الشيخ ابن الفارض إمام الغزليين والصوفيين . فاذا قال مثلاً

أبرقٌ سرى من جانب الغور لامع أم ارتفعت عن وجه سلمى البراقع

***

لا شك في أن ابن الفارض يحب حبًّا الهيًّا . ولكن هذا الغزل اذا سمعه غيره ترجمه نفسه بمعنى قائم فيها . فالعاشق البريء في عشقه يترجمه على انهُ عشق بريء . والماجن السادر في مجونه يترجمه بالمجون واللهو والخلاعة واللذة الشهوية ولذلك عكف عليه المغنون المحترفون للكسب والارتزاق ولم يجدوا لغة يتغنون بها الاَّ لغة الغزل . والمغني كل همه ان يطرب ويتطرف ويدخل بغنائه الى قلوب سامعيه لا سيما بعد ان صار الغناء حرفة ومرتزقاً من القيان والموالي مثال عزة الميلاء ونشط الفارسي وطويس والغريض ومعبد في الصدر الاول . وقس على أثرهم وزاد عليهم الموصليون ابراهيم وابنه اسحاق وابنه حماد في العهد العباسي . ثم ذرياب في الاندلس

على ان الغزل بنحره لم يكن صالحاً لطرب النفس في جميع الاوقات اطلاقاً لانها اذا غمرها معنى من معاني الحياة السامية او تذكر الآخرة فان سماع الغزل حينئذٍ لا يغني عن ذلك شيئاً بل تطلب النفس طرباً آخر . أي انهُ لا يصح ان يقال للناس في كل وقت وبمناسبة وبغير مناسبة فقد تكون الحال جدًّا كلَّ الجدّ لا يصح ان يكون الغزل لغتها وخطابها . ومن ذلك نحكم بأنهُ من الواجب التنويع في أغانينا بما يناسب الظروف والاحوال لا أن تفرض لغة الحب فيها على الناس فرضاً في كل وقت ولحظة . فقد تحدثوا عن الرشيد بأنه جمع ليلة المغنين فاستعرضهم فلم يطرب لاحد منهم ولكنه طرب وأغرق في الطرب حين سمع مسكين المدني يغني

قف بالمنازل ساعة فتأمل فلسوف أحمل للبلى في محمل

هذا وشيء آخر قد يكون سبباً في ان هؤلاء المغنين السابقين نأوا بجانبهم عن غير الغزل والتشبيب والتعشق في غنائهم . ذلك أنهم لم يكونوا من أصحاب الامر والرأي والحكم بمنزلة غيرهم من الطبقات التي تتحدث عن الحياة ونهوضها وسياستها وأخلاق بنيها كالفقهاء والائمة والكتاب والشعراء الاعلين وانما كان الغناء لا يسمع غالباً والمغني لا يطلب إلاّ في وقت الفراغ والدعة لقضاء الوقت في السرور والطرب بعد العمل وكد الحياة . فلم تكن صناعتهم يومئذٍ من الصناعات التي تدخل في جد الحياة وتقويم سبلها

ويظهر ان هذه المعاني هي التي سيطرت على كاتب العمران والاجتماع في الشرق عبد الرحمن

ابن خلدون في وصفه صناعة الغناء بقوله (وهذه الصناعة آخر ما يحدث في العمران من الصنائع لأنها كمالية في غير وظيفة من الوظائف إلا وظيفة الفراغ والفرح)

قد يتوارى الفنون في هذا الزمن خلف أولئك المغنين الذين ذكرت بعض أسمائهم في ان لغتهم كانت لغة غزلية بحتة في غنائهم وان اللغة المزلية والمعاني الهباء التي يستعملونها الآن في الغناء هي على قدر الزمن وأهله قد يقال ذلك ولكنا نعلم ان زمن المغنين الغزليين السابقين هو الزمن الذي وصفنا فيه قدر صناعتهم وأثرها في الحياة فلم يكن الغناء في زمنهم شعبيًا عامًا بل كانت المغنية او المغني غالبًا خصوصية من خصوصيات رجل واحد أو أسرة واحدة فيقال مثلاً هذا مغني الوليد وذلك مغني اليزيد وهذه مغنية البرامكة. فلم يكن للغناء يومئذ ذلك الذيوع العام الذي نجده له في أيامنا. وقد أسلفت ان ما يسمع الناس منهُ بواسطة المذياع كثير وغيره قليل حتى رأى بعض الادباء رأيًا خاصًا له هو الاستغناء عن لغة هذه الاغاني جملة . وقصر الطرب على الموسيقى البحتة فعيش الناس بلا غناء افضل لهم من غناء هذا شأنه وأنا لا أذهب الى هذا الرأي لانهُ لو عمل به نكون كمن أجهز على جريح يرجى له الشفاء وقد يكون بعد ذلك من النافعين

يجب ان نرتفع بالاغاني والمغنين عن هذه المنزلة فيتناول غناؤنا كل عيب من عيوب حياتنا باعطائه ما يناسبه من التقويم والاصلاح لأنها من أدب عامة الشعب ولها عليهم سلطان كبير. ولا بأس من بقاء لغة الحب انما تكون لغة سليمة لها معان عفة واضحة كما ضربنا لك المثل بغزل من قول البهاء زهير

يجب ان تتناول أغانينا اصطناع المعروف واغاثة الملهوف وحسن المعاشرة والمودة في القربى وحب الشرف والكبرياء القومي والوفاء للوالدين والزوجة والاولاد ورعاية الحرمات والذمم التي تقطعت بها الاسباب وذم الفحش وخيانة العرض والترغيب في الزواج وذمّ الطلاق الا لسبب سائغ وامتداح العفة والشرف كما قالت السيدة عائشة التيمورية

بيد العفاف أصون عزّ حجابي وبعصمتي أسمو على أترابي
وبفكرة وقادة وقريحة نقادة قد كملت آدابي

أرى اخيراً ان يسن تشريع خاص لهذه الصناعة هو القاضي العادل الذي يقضي لنا في هذه المشكلة الاجتماعية على ان يحاط هذا التشريع برقابة قوية تسهر على تنفيذه . وهنالك يتبارى الادباء في وضع الاغاني الجديدة وفي اختيار القديم الصالح منها وفي تأليف الروايات الغنائية النائقة . وهذا هو ما أراه اليوم كاجمال للقول في الاغاني وفي اصلاح هذه الصناعة الشريفة